مِنطقةُ العقل ومَنطِقُهُ في المنظور القرآني ودوره في تأسيس الإجتماع الإنساني

The logic of the mind and its logic in the Qur'anic perspective and its role in establishing human society

إعداد
أ.د عمر عيسى عمران
كلية العلوم الاسلامية/ الجامعة العراقية

Prepared by
Dr. Omar Eissa Omran Alhleby
Islamic Sciences College, Iraqi University

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الملخص

إنَّ قضايا العلاقة مع الآخر كانت وما زالت تتصدر اليوم قائمة أهم القضايا الرئيسة في الفكر الإنساني وحقوقه التي تتبناها القيم والمنظومات الغربية بخاصة، وقد ارتهن الموقف الشعبي والسلطوي في المجتمعات الانسانية على مرِّ العصور في الغالب برؤى المرجعية الفكرية والمؤسسة الدينية الرسمية، وهي رؤى كانت ومازالت في الأعم الغالب تستهدف بناء المجتمعات وفق مبادئ الحقوق والواجبات، وعليه فقد كان الناس سواسية إلا في بعض الخصوصيات الدينية التي كانت وما زالت في أعرق المدنيات محفوظة من حيث اللباس والطقوس والشعائر وبصورة لا تؤثر سلبا على النظام العام للدول والمجتمعات.

ان هذا البحث محاولة أخرى، واسهامة جديدة في تأكيد صلاحية منظومة الدين الاسلامي في تعاملها مع التنوعات البشرية المختلفة التي توافرت على حكمها في كلِّ زمان ومكان، حيث حاولنا ابراز قيمة واحدة من مجموع قيم تلك المنظومة التي ارتكز عليها الانسان المسلم في بنائه المعرفي تجاه الآخر، وتلك هي قيمة العقل ووظيفة التعقل في المنظور القرآني، ومدى اسهامها في بلورة رؤية تعايش وسلم مجتمعي بين مختلف الديانات في المجتمعات المختلطة وغير المختلطة.

Abstract:

summary The issues of the relationship with the other were and still tops the list today of the most important major issues in human thought and its rights that are adopted by western values and systems in particular. Mostly, it aims to build societies according to the principles of rights and duties, and accordingly, people were equal except in some religious peculiarities that were and still are in the most ancient civilizations in terms of clothing,

of rationality in the Qur'an perspective, and the extent of its contribution to crystallizing a vision of coexistence and societal peace between different religions in mixed and non-mixed societies

❊ ❊ ❊

المقدمة

يشتمل حقل «الدراسات الدينية» على عدد من الفروع العلمية المتنوعة التي تَدرسُ -على وفق مناهج مختلفة- أبعاداً ومجالاتٍ متعددةً من الدين، ولعل من أبرز تلك الأبحاث التي تنشعب من الدراسات الدينية تلك الابحاث التي تُبرِزُ أثر الدين في علم الاجتماع، وعلم النفس، والأنثروبولوجيا، والميثولوجيا، فضلا عن حقيقة الدين والتدين في فينومينولوجيا الدين، وما يستتبع ذلك من الأبحاث المقارنة في علم الأديان المقارن، وتاريخ الأديان.

ويلحظ على هذه الأبحاث اهتمامها بتوصيف القضايا الدينية بغض النظر عن صوابها من عدمها، أو صدقها من كذبها، ومن هنا تتوجه الدراسات المعرفية اليوم نحو هذه الحقول العلمية، في محاولة لحصر الاهتمام في تصنيف الأفكار وتوصيفها، وهذا ما نحاوله هنا في هذا البحث الموسوم ب» منطقة العقل ومنطقه في المنظور القرآني ودوره في تأسيس الاجتماع الإنساني «؛ إذ أنَّ قضايا العلاقة مع الآخر تتصدر اليوم قائمة أهم القضايا الرئيسة في الفكر الإنساني وحقوقه التي تتبناها القيم والمنظومات الغربية بخاصة، وإن توجيه الإعلام المؤدلج بأصابع التهمة نحو الدين الإسلامي في اقصاء المخالف وارهابه يثير الاستغراب والريبة من محاولة إلصاق تهم عدم الاحترام وازدراء الآخر بهذا الدين العظيم الذي كان له الريادة في احترام أهل الديانات الأخرى وحمايتهم على مرِّ العصور؛ فقد ارتهن الموقف الشعبي والسلطوي في المجتمعات الانسانية على مرِّ العصور في الغالب برؤى المرجعية الفكرية والمؤسسة الدينية الرسمية، وهي رؤى كانت ومازالت في الأعم الغالب تستهدف بناء المجتمعات وفق مبادئ الحقوق والواجبات، وعليه فقد كان الناس سواسية إلا في بعض الخصوصيات الدينية التي كانت وما زالت في أعرق المدنيات محفوظة من حيث اللباس والطقوس والشعائر وبصورة لا تؤثر سلبا على النظام العام للدول والمجتمعات.

إنَّ من يستقرئ حقب التأريخ القريب والبعيد سيقف بلا أدنى شك على حقائق وبراهين ودلائل يقينية على صلاحية منظومة الدين الاسلامي في تعاملها مع التنوعات البشرية المختلفة التي توافرت على حكمها في كلِّ الأزمان ومختلف العصور والأمكنة، ومن هنا سنحاول في هذا البحث ابراز قيمة واحدة من مجموع قيم تلك المنظومة التي ارتكز عليها الانسان المسلم في بنائه المعرفي تجاه الآخر، وتلك هي قيمة العقل ووظيفة التعقل في المنظور القرآني، ومدى اسهامها في بلورة رؤية تعايش وسلم مجتمعي بين مختلف الديانات في المجتمعات المختلطة وغير المختلطة.

وقد جاء هذا البحث في مقدمة ومبحثين وخاتمة، وعلى النحو الآتي:

المبحث الأول/ مقاربات منطقة العقل ومساحة التعقل المتاحة قرآنيا
المطلب الأول/ منطقة العقل في المنظور القرآني
المطلب الثاني/ منطق العقل بين بناء التصورات وتحقيق مقام القلب
المبحث الثاني/ منطق التعقل القرآني.. شواهد تاريخية مشرفة في تأسيس الإجتماع الإنساني
المطلب الأول/ منطق التعقل القرآني منهج حياة.
المطلب الثاني/ صور تطبيقية من السيرة والتأريخ الاسلامي

❊ ❊ ❊

المبحث الأول

مقاربات منطقة العقل ومساحة التعقل المتاحة قرآنيا

• **المطلب الأول/ منطقة العقل في المنظور القرآني**

العقل في القرآن الكريم له خصوصية مصطلحية تغاير معناه في مساحته المفاهيمية الفلسفية والكلامية؛ إذ ورد في القرآن على صورة وظيفة فاعلية، لا جوهرا، أو جسما، أو غير ذلك ممَّا هو شائعٌ عند المدارس الفلسفية والكلامية، أو في غيرها من المدارس الفقهية والتفسيرية التي تأثرت إلى حدٍّ ما بوجهة النظر الكلامية والفلسفية؛ فأوصلوا تعريفاته ومحدداته إلى خمسين تعريفا، أو يزيد، ومن ثمّ اختلفوا في محلِّه: هل هو في الدماغ، أو في القلب؟، وما ذلك إلا لانَّهم حاكموه ابتداء على أنَّه جوهر، وذات، وجسم، بينما هو وظيفة يقوم بها القلب الذي يمتلك عدة وظائف غير وظيفة التعقل، والدليل على أنه وظيفة عدم وروده قرآنيا اسمًا ومصدرًا؛ بل فعلا مضارعا إلا في حالة واحدة ورد فيها ماضيا (عقلوه)، ممَّا يدلل على أنه مصطلح يرمز إلى مفهوم خاص، وعرف محدد قرآنيّاً.

إذن التعقل وظيفة من وظائف القلب، أو عمل من أعماله، وللقلب وظائف وأعمال رصدها المتقدمون من العلماء، ومنها: الحب والبغض،

والتصديق والتكذيب، والايمان والكفر، والعلم والجهل، والصلاح والفساد، والرياء والحسد، والمودة وعدمها، والموالاة والمعاداة، ومن وظائفه أيضا التعقل، وهذا أمر ربما غفل عنه الكثيرون حين مايزوا بين العقل والقلب فجعلوهما اثنين بينما هما واحد، فالعقل هو وظيفة من وظائف القلب لا شيئاً مقابلاً له ومغايراً عنه، ويمكن القول أنَّ العقل هو رئيس وظائف القلب، ولخطورة شأنه وأهميته أصبح نظيراً للقلب، قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾[1].

وهذه الآية فيها دلالة واضحة صريحة على أنَّ منطقة العقل هي القلب، وإنَّ أية محاولة لفهم منطق هذا العقل يجب ألا تكون بمنأى عن فهم طبيعة القلب ووظائفه المتكثرة!

وبالرجوع الى المعاجم اللغوية نجد أن منطق العقل يدور حول معان، هي: المنع، والإمساك، والضبط، والحفظ، وضده الإرسال، والإطلاق، والإهمال، والتسيب، ونحو ذلك[2]، وهذا يعني أن العقل يمسك ويلجم ويضبط الإنسان من الوقوع في ما هو غير محمود الفعال والمقال.

أما العقل في الاصطلاح؛ فقد اختلف العلماء قديما وحديثا في تعريفه إلى أقوال كثيرة، وأراء مختلفة متباينة، حتى قال الغزالي (رحمه الله): « إذا قيل (ما حد العقل؟) فلا تطمع أن تحده بحد واحد فإنه هوس؛ لأنَّ اسم العقل مشترك يطلق على عدة معان»[3]، وقال:« فلا ينبغي أن يطلب لجميع أقسامه حد واحد؛ بل يفرد كل قسم بالكشف عنه»[4]، ولعل السبب في ذلك هو: « تباين المرجعيات والمقاصد والمناهج والمخزونات النفسية التي سادت بحوثهم حول العقل؛ فقد تداول البحث في هذا الموضوع فلاسفة وعلماء كلام وعلماء أصول وفقهاء وأطباء وغيرهم, وهم مختلفون فيما ذكرنا من المنطلقات»[5].

فذهب الفلاسفة إلى أنه جوهر[6] مستقل قائم بذاته، يدرك المعقولات دون المحسوسات والكليات دون الجزئيات. بينما ذهب جمهور العلماء من غير

(١) سورة الحج، الآية، ٤٦.

(٢) القاموس المحيط, الفيروز آبادي ٤/ ١٨ مصر, نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة للمطبعة الأميرية ١٣٠٢ه ؛ المفردات في غريب القرآن, للراغب الأصفهاني، ص ٣٤٢. تحقيق محمد سيد كيلاني, دار المعرفة, بيروت, بدون معلومات الطبع.

(٣) المستصفى، أبو حامد الغزالي ١/ ٧٠, تحقيق محمد عبد السلام عبد الشافي, دار الكتب العلمية, بيروت, ط١, ١٤١٣ه/ ١٩٩٣م.

(٤) إحياء علوم الدين, للغزالي ١/ ١٤٥ .

(٥) مباحث في العقل، د. محمد نعيم ياسين، ص ١٩

(٦) الجوهر، هو ذات الشيء الحادث وحقيقته. ينظر : شرح المقاصد في علم الكلام, سعد الدين التفتازاني : ١/ ١٧٥، شرح المواقف للجرجاني: ٢/ ٣٠٨.

الفلاسفة إلى أن العقل ليس بجوهر؛ وإنما عرض[١] في جسم غير مادي وهي الروح؛ ولأنه لو كان جوهراً لصح قيامه بذاته، ولصح أن يعقل ويكلف؛ لأنَّ ذلك مما يجوز على الجواهر، وفي امتناع ذلك دليل على أنه ليس بجوهر[٢]، واختلفوا في العرض؛ فذهب الأطباء إلى أنه عرض من أعراض البدن، وما هو إلا وظيفة المخ، بينما ذهب جمهور علماء المسلمين إلى أنه عرض قائم بالنفس أو الروح[٣].

ومن ثم أصبح العقل يطلق على عدة معان:

الأول: الغريزة التي في الإنسان والتي تميزه عن الحيوان؛ فبها يعقل ويعلم ويميز بين الضار والنافع[٤].

الثاني: العلم الضروري، أو بعض العلوم الضرورية على خلاف في ذلك: وهو العلم بالممكنات, والواجبات، والممتنعات؛ كالعلم: بأن الاثنين أكثر من الواحد، وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد. وهو قول القاضي أبي بكر الباقلاني؛ حيث حمل معنى العقل على العلم الضروري[٥].

الثالث: العلم التجريبي (الكسبي) وهي العلوم التي تحصل بتجربة الإنسان، وخبرته، وكسبه، يقول عنها الغزالي:« علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال؛ فإن من حنكته التجارب وهذبته المذاهب يقال إنه عاقل في العادة، ومن لا يتصف بهذه الصفة؛ فيقال إنه غبي غمر جاهل؛ فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلا»[٦].

الرابع: الأعمال التي يستوجبها العلم من الإيمان بالله تعالى، وتصديق كتبه، ورسله، والتزام أمره ونهيه، وضده لا يسمَّى عقلاً، أو عاقلاً، قال تعالى:﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾[٧]، فنفى أهل النار عن أنفسهم صفة العقل؛ لعدم طاعتهم، وهو الثمرة والغاية من العقل[٨]، ومن لا يستعمل حواسه في العقل عن الله ورسوله، والتفكر في أمر الآخرة فانه لا يعد عاقلا؛ بل هو يكون كحال الأنعام، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

(١) العرض، ومعناه ما يعرض للموضوع، وعروض الشيء للشيء إنَّما يكون بعد تحقق حقيقته. ينظر: شرح المقاصد في علم الكلام: ١٧٥/١.

(٢) ينظر: العدة في أصول الفقه، لأبي يعلى البغدادي: ٨٧/١.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ص ٢٠- ٢١.

(٤) إحياء علوم الدين ١٤٥/١؛ المستصفى ٧٠/١.

(٥) ينظر: المستصفى، الغزالي ٧١/١.

(٦) إحياء علوم الدين ٨٥/١ ٨٦؛ أدب الدنيا والدين، الماوردي ٢٠، مقال العقل، تعريفه، منزلته، مجالاته، ومداركه د. عبد القادر بن محمد بن عطا صوفي، مجلة البحوث الإسلامية, عدد ٧٩ /٣٥٠ .

(٧) سورة الملك: ١٠.

(٨) ينظر: إحياء علوم الدين ١/ ٨٦.

﴿ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [1] « وقد قيل: إن العاقل من عقل عن الله أمره ونهيه، حتى قال أصحاب الشافعي ﷺ فيمن أوصى بثلث ماله لأعقل الناس: أنه يكون مصروفا في الزهاد لأنهم انقادوا للعقل ولم يغتروا بالأمل»[2].

وهذا هو منطق العقل قرآنيّاً، وهو ما يجب التأسيس عليه وله في دراساتنا الإنسانية والمعرفية والإسلامية، ومن ثمَّ توعية الفرد والمجتمع به حتى يعرفوا قيمة العمل الذي هو ثمرة للتعقل وهو وظيفة القلب الرئيسة.

- **المطلب الثاني/ منطق العقل بين بناء التصورات وتحقيق مقام القلب**

بعد أن وقفنا على منطقة العقل ومحدداتها قرآنيّاً، وأشرنا ثمّة إلى مكانة القلب، وكونه محلا للعقل، ومحل وظيفته التي هي التعقل، نرشد هنا إلى أهميتها المعرفية التي يجب أن يقف عندها المسلم المعاصر، ويعمل فكره، ويقلب نظره؛ لأن ما يراه اليوم من اختلاف، وتنازع، وتدابر، ثم تقاتل إنَّما هي في حقيقة الأمر مظاهر لغفلة المسلم عن حقيقة العقل ووظيفة التعقل، ولتوضيح أكثر يحسن بنا استدعاء الفكرة التي أثارها الشيخ محمد متولي الشعراوي في تفسيره مع تغيير في الالفاظ وبعض المضامين؛ إذ يفترض: أننا في حجرة مغلقة، ثم سمعنا الباب يطرق من الخارج، وبهذا سنتعقل حينها أن هناك طارقاً بالباب، ولن يختلف اثنان على ذلك مطلقا؛ فإذا ما أردنا أن نتصور الطارق المحجوب عنا بالباب اختلفنا، فمن قائل أنه الوزير، ومن قائل أنه وكيله، ومن قائل أنه مدير الجامعة... ومن قائل أنه طويل ومن قائل أنه قصير.. أنه سمين أنه نحيف، انه جميل أنه قبيح ... إلى آخره[3]؛ إذاً ما الذي حصل؟، في معرض الإجابة نقول: إن الذي حصل أن هناك اتفاقا في منطقة، واختلافا في منطقة أخرى، أمَّا منطقة الاتفاق فهي منطقة تحقيق مقام القلب وهي بعينها منطقة العقل، وأما ما اختلفنا فيه فهي منطقة بناء التصورات، أي منطقة التعقل، ولكل خصائص متمايزة، أبرزها الثبات في التعقل والتغير في التصور، وقبل أن نستفيض في ذلك نشير إلى تساؤل مهم وهو: ما الذي ينبئ عن التصور؟ ومن الذي يرفع الاختلاف من بيننا؟ الجواب هو صاحب الشأن نفسه، يقول اسمي كذا، ومطلوبي كذا، وحينها يحسم الأمر؛ فالخلل الذي يقع فيه كثيرون أنهم ينتقلون من منطقة التعقل إلى منطقة التصور، وهي منطقة شائكة وعرة المسالك لن نخرج منها إلا بشق الأنفس وتجذير الاختلاف، بينما في منطقة التعقل سنجد الوحدة والألفة، ولا يعني هذا الوحدة بصورة شاملة وكلية، أو أننا ندعو لذلك؛ بل ما نصبو له أنّنا بمكنتنا التعايش الإنساني من خلال وظيفة واحدة من وظائف القلب وأعماله،

(١) سورة الأعراف: ١٧٩.
(٢) أدب الدنيا والدين، الماوردي، ص ١٩.
(٣) ينظر: تفسير الشعراوي، ١١٦٩٢/١٩.

والتي تكتسب أهميَّة كبيرة ومكانة مهمة في اصلاح الإنسان، وتظهر هذه الأهمية من خلال الخصائص الآتية لتحقيق مقام القلب ومنطقة العقل، وهي:

أولاً: القلب محلُّ معرفة الله تعالى؛ فالقلب هو العالم بالله، وهو المتقرب إلى الله؛ فمعرفة القلب وحقيقته وأوصافه أصل الدين وأساس طريق السالكين[١].

ثانياً : القلب محل نظر الله تعالى، قال ﷺ « إنَّ الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم، وأشار بأصابعه إلى صدره»[٢]؛ فمن هذا الحديث تعرف أنَّ الله عز وجل لا ينظر إلى صورة العبد، ولا إلى جسمه؛ بل ينظر إلى قلبه.

ثالثاً: القلب مصدر تلقي الوحي والالهام، مصداقه قوله تعالى:﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾[٣] فالقلب هو مكان التلقي وهو محل التعقل من الفهم والحفظ والادراك .

رابعاً : القلب مركز الصلاح والفساد، وهو سببها كما في قوله ﷺ «ألا إنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه ألا وهي القلب «[٤]

خامساً : القلب مستقر الإيمان، مصداقه قوله تعالى ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾[٥] من هذا نخلص بأنَّ القرآن أرشد القلب والعقل إلى وظيفة كلٍّ منهما، وحذر من اعتداء أحدهما على مساحة الآخر؛ فالقلب مركز الفهم، والفقه في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾[٦]، وهو وسيلة التعقّل والإدراك في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾[٧]، ويجعله أهلاً لتحمّل مسؤولية الفعل المنسوب إليه في قوله تعالى:﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا

---

(١) احياء علوم الدين، للغزالي٣ / ٨-٩ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب البر، باب تحريم ظلم المسلم، ١٦ / ١٢١ ؛ سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب القناعة، ج٢ / ١٣٨٨ ، بلفظ مقارب .

(٣) سورة البقرة: آية, ٩٧

(٤) صحيح البخاري : كتاب الإيمان، باب من استبرأ لدينه ، من حديث النعمان بن بشير, ١ / ٢٨ رقم (٥٢) ؛ صحيح مسلم : كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، من حديث النعمان بن بشير ٣ / ١٢١٩ رقم ٢٩٩٦ / صحيح الجامع : رقم (٣١٩٣) .

(٥) سورة الحجرات، آية : ١٤ .

(٦) سورة الأعراف: ١٧٩.

(٧) سورة الحج، الآية : ٤٦ .

تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨٣﴾ ﴾[١] ، ويجعلـه مركـزاً لتشرّب معاني الاعتقاد من الإيمان، أو الكفر في قوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ﴾[٢]، ويجعله موطن المشـاعر والأحاسيس في قوله تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾ ﴾[٣].

أمَّا العقل في القرآن؛ فقد جـاء ليؤكد صور وظيفة التعقل، التي تمثل خصائص مميزة له، ومنها:

أولا - ارتبط التعقل بمفهــوم العالمية لهذا الدين، ومــن هنا كان تحقيــق التعايش أمراً ميسـوراً، قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[٤]

فقد أطلقت الآية لفظ الأخوة في بدء الأمر ارشــاداً للأقــوام الكافرة إلى حســن التعامل مــع الأنبياء ودعوتهم؛ لكن حين أصروا على الرفض ومصادرة حقِّ نبيِّ الله هود عليه السلام في الدعوة والإصلاح نفى الله عنهم حينهــا العقلانية، واتهمهم بالافتراء والكــذب، لــذا لا تعايش والحالة هــذه؛ بل تنابذ وتنافر، ومن هنا نقف على حقيقة مهمة في الإسلام، وهي أنَّه لا يقاتــل، ولا يأمر أتباعــه بالقتال، وأيُّ بلد يزعم الحرية عليه أن يسـمح للمسلم بممارسة طقوســه وتعريف الناس بهــا، واظهار شـعائره، وممارســاته السـلوكية التي لا تصطدم مطلقا مع حريات الآخرين وسلوكياتهم، أو تصادرها.

ثانيا- لا يهتم منطق العقل لقضايا التأليف والمحبة والمــودة؛ فهذه من اهتمامــات القلب وخصائصه القائمــة على التعظيــم، ما يهم العقل هو ترسـيخ الاحــترام والبر والعــدل والانصاف لهــم، وعدم تحريك الجــوارح بالضدِّ من الآخــر، تحت مبدأ وقاعدة لكم دينكــم ولي دين يقــول تعالى: ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾[٥] وعــدم الميــز بن هذيــن الأمرين كثيراً ما يوقــع في مفاهيــم مغلوطة، وأحــكام خاطئة، ومنها محاولة بعضهم اسـتدعاء أقوال الفقهاء غير المتســاهلة في طريقة التعاطي مــع أهل الكتاب، أو التعامــل مع غير المســلم؛ فيسـقطها في زمان ومــكان يختلفان عــن زمان ومكان صــدور تلك الأقوال الشـديدة معهم؛ فيقــع الخلط والخطأ في بناء التصورات وما تسـتتبعها من ممارسات، ومن هنا يأتي التأكيــد بأن العقل ووظيفــة التعقل ليس

(١) سورة البقرة، الآية : ٢٨٣ .
(٢) سورة النحل، الآية : ١٠٦ .
(٣) سورة الانفال ، الآية : ٦٣ .
(٤) سورة هود، آية : ٥٠-٥١ .

(٥) سورة الممتحنة، آية ٨.

لهما اهتمام يُذكر بما في الصدور والجوانح، وإنّما يهدف العقل في الإسلام إلى نشر الاحترام حتى لو كانت القلوب متنافرة، قال تعالى:﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٠٨ ﴾[1]، ويدعو إلى عدم الظلم حتى لو كانت القلوب متباعدة، مصداقه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨ ﴾[2] كما يدعو إلى عدم إثارة البغضاء والتطرف حتى لو كانت القلوب غير متآلفة؛ فالعقل والتعقل يؤمنان بالتعايش مع وجود الاختلاف الذي لن يرتفع ما دامت الأرض والسماوات، ولهذا عاب الإسلام على المشركين حين لم يفطنوا لوظيفة القلب بوصفه منطقة العقل وضرورة تفقهه وتعقله وهما منطقه؛ فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[3].

ثالثا- الألفاظ الشرعية يجب التعامل معها على وفق الشرع، وذلك عن طريق جمع النصوص في اللفظ الواحد، واستخلاص الفهم العام له، ومحاولة ربطه بقاعدة كلية أغلبية، ثم توجيه الألفاظ الخارجة عن ذلك المعنى العام مع تلك القاعدة الاغلبية بحيث لا تتصادم النصوص فيما بينها، ولا تتعارض.

وفي معرض التمثيل على هذا النمط من الالفاظ بمثال واحد؛ فإن لفظي المودة والرحمة لا يصح أن يكونا بين مسلم وغير مسلم للنصوص الواردة في ذلك؛ كقوله تعالى:﴿ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢ ﴾[4] وذكر اختصاص هذين اللفظين بالمؤمنين في قوله ﷺ(مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ...)[5] لكن قد يشكل على ذلك انه ورد في النص القرآني قوله تعالى:﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ

(١) سورة الانعام، الآية : ١٠٨ .
(٢) سورة المائدة، الآية : ١٠٨ .
(٣) سورة الاعراف، آية : ١٧٩ .
(٤) سورة المجادلة الآية ٢٢.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم فتح الباري ١٠/ ٤٣٨برقم ٦٠١١، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ٤/ ١٩٩٩ برقم: ٢٥٨٥.

يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[١] فهو هنا اثبت المودة والرحمة بين الزوجين، واحتمالية أن تكون الزوجة كتابية غير مسلمة أمر وارد؛ فهل ستتحقق المودة بين مسلم وغيره في هذه الصورة بما يأتي على الأصول المقرة بالنقض؟. في معرض الإجابة نقول إنه على وفق القاعدة الكلية التي قررناها، وهي منطقة العقل أي القلب؛ فسوف تنتفي صلة المودة والرحمة بين المسلم والكافر، وهذا هو الأصل في هذه المسألة، ومن ثم لا نقض له بهذه الصورة، ومن ثم يصار إلى توجيه الألفاظ الخارجة عن هذا الأصل؛ لتتوافق مع القاعدة الكلية المقرة هنا، وهذا يعني ضرورة حمل المودة بين الزوجين إلى معنى آخر لا يتعارض، ولا يتصادم مع ذلك المعنى الكليِّ؛ كأن يقال أنَّ هذه المودة والرحمة بمعناها الجبلي الطبيعي، أو بمعنى الإحسان والشفقة، أو غير ذلك من المعاني التي لا تنقض علينا أصلنا الكلي الذي قررته مجموع النصوص وفق أصول الشريعة وثوابت الدين.

وفي هذا الصدد يحسن بنا أن نستدعي هنا قول العلامة القرافي رحمه الله في الفروق في بيان الفرق التاسع عشر والمائة بين قاعدة بر أهل الذمة وبين قاعدة التودد لهم، وبمعرفة الفرق بينهما تتمايز الصور، وتتضح المعالم بين منطقة العقل ومنطقه، أو بين القلب ووظيفة التعقل؛ فيقول القرافي ما نصُّه: (اعلم أنَّ الله تعالى منع من التودد لأهل الذمة بقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ ﴾[٢] الآية فمنع الموالاة والتودد، وقال في الآية الأخرى ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾[٣] الآية وقال في حق الفريق الآخر ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾[٤] الآية .

وقال ﷺ : (اسْتَوْصُوا بِالْقِبْطِ خَيْرًا)[٥]؛ فلا بد من الجمع بين هذه النصوص، وإن الإحسان لأهل الذمة مطلوب، وأن التودد والموالاة منهي عنهما، والبابان ملتبسان؛ فيحتاجان إلى الفرق، وسرُّ الفرق أن عقد الذمة يوجب حقوقا علينا لهم؛ لأنّهم في جوارنا، وفي خفارتنا، وذمة الله تعالى، وذمة رسوله ﷺ، ودين الإسلام؛ فمن اعتدى عليهم، ولو بكلمة سوء، أو غيبة في عرض أحدهم، أو نوع من أنواع الأذية، أو أعان على ذلك؛ فقد ضيع ذمة الله تعالى، وذمة رسوله ﷺ، وذمة دين الإسلام... وإذا كان عقد الذمة بهذه المثابة وتعين علينا أن نبرهم بكل أمر لا يكون ظاهره يدل على مودات القلوب، ولا تعظيم

(١) سورة الروم الآية ٢١.

(٢) سورة الممتحنة الآية ١.

(٣) سورة الممتحنة الآية ٨.

(٤) سورة الممتحنة الآية ٨.

(٥) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤٠٣٢) عن كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ مرفوعا، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٧٤) على شرط الشيخين أيضاً.

شـــعائر الكفر؛ فمتى أدّى إلى أحـــد هذين امتنع، وصار من قبل ما نهي عنه في الآية وغيرها، ويتضح ذلك بالمثل؛ فإخـــلاء المجالس لهم عند قدومهم علينا، والقيـــام لهـــم حينئذ، ونداؤهم بالأســـماء العظيمة الموجبة لرفع شـــأن المنـــادى بها هذا كله حرام، وكذلك إذا تلاقينا معهم في الطريق، وأخلينا لهم، واسعها، ورحبها، والسهل منها، وتركنا أنفسنا في خسيســـها، وحزنها، وضيقها كما جرت العادة أن يفعل ذلـــك المرء مع الرئيس، والولد مع الوالد، والحقير مع الشريف؛ فإن هـــذا ممنوع لما فيه من تعظيم شـــعائر الكفر، وتحقير شـــعائر الله تعالى، وشعائر دينه، واحتقار أهله، ومن ذلك تمكينهم من الولايـــات والتصرف في الأمـــور الموجبة لقهر من هي عليه، أو ظهور العلو وسلطان المطالبة؛ فذلك كله ممنوع، وإن كان في غايـــة الرفق والأناة أيضاً؛ لأن الرفـــق والأناة في هذا الباب نوع من الرئاســـة، والســـيادة، وعلو المنزلة في المـــكارم؛ فهي درجة رفيعة أوصلناهم إليها، وعظمناهم بســـببها، ورفعنا قدرهـــم بإيثارها وذلك كله منهـــي عنه .وكذلك لا يكون المسلم عندهم خادما، ولا أجيرا يؤمر عليه، وينهى، ولا يكون أحد منهم وكيلا في المحاكمات على المســـلمين عند ولاة الأمور؛ فـــإن ذلك أيضا إثبات لسلطانهم على ذلك المسلم[1]

(١) أقول: إن هذه المحددات التـــي ذكرها القرافي رحمه الله تعالى، ويذكرها غيره ممّا ورد في فروع الفقه الإسلامي للتعامل مع غير المسلم في الديار الاسلامية، والتي ينسبها بعضهم أو يسميها بالشروط العمرية، ومنها: حرمة ابتدائهم بالســـلام، و سائر انواع التحية، ومنعهم من اظهار أعيادهم، ووجوب إلباسهم لباسا خاصا بهم يمتازون به عن المسلمين، والزامهم بجز النواصي، ومنع ارســـال شعورهم كما تصنع الأشراف من المســـلمين، ومنعهم من ركوب الخيل، وتقلد الســـيوف، وحمل الســـلاح، وإلجائهم إلى أضيق الطرق، وعـــدم تصديرهم في المجالس، ومنعهـــم من إحداث بناء يعلو بناء جيرانهم من المسلمين، وحرمة تكنيتهم بالأسماء المعظمة، إلى غير ذلك من الأحـــكام التي ربما يقف منها المســـلم المعاصر موقـــف الاندهاش والاســـتغراب، وقد يضخم خصوم الإسلام من هذه المحددات؛ فيوظفونها في تشـــويه صورة هذا الدين، وجعله دينا ينافي حقوق الإنسان ومواثيق النظم الديمقراطية والمدنيات الحديثة، ونحب هنا توضيح بعض الأمور:

الأمـــر الأول، إنَّ بحثنا يعالج القضيـــة من منظور قرآني، لا فقهـــي مذهبي؛ فالصور في الاتجـــاه المذهبي كثيرة جدا، وهي تكاد تختلف، أو تتفق بـــين مذهب وآخر، ولا بد من استقراء جيد لنتاجات الفقهاء في ذلك قبل اعطاء أي حكم. ومن المهم تحرير الجواب عن ذلك على وفق أسس فكرية ومنهج علمي رصين في بحث مســـتقل يـــورد كل الصور؛ فيجمع بين المؤتلفات، ويمايز بين المختلفات.

الأمر الثاني، إن هذه المحددات ليســـت أمراً دينيّاً، واجب التعبد به في كل زمان، ومكان كما فهم بعض الفقهاء الذين يســـتدل لأقوالهم وتحريراتهم ولا يســـتدل بها، وفرق بين الأمرين.

الأمر الثالث، أن هذه الأحكام في جانب مهم منها مرتبط بسياسة الدولة العليا، وبحسب ما تراه صالحا للمجتمع، ولا شـــك أن هذه السياســـة ليســـت ثابتة، ولا على نسق واحـــد؛ فأحـــكام الحرب تختلـــف عن أحكام الســـلم، وأحـــكام القـــوة غير أحـــكام الضعف، وأحـــكام النصر

وأما ما أمر به من برهم ومن غير مودة باطنية؛ فالرفق بضعيفهم، وسدُّ خلة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وإكساء عاريهم، ولين القول لهم على سبيل اللطف لهم، والرحمة لا على سبيل الخوف والذلة واحتمال إذايتهم في الجوار مع القدرة على إزالته لطفا منَّا بهم لا خوفا وتعظيما والدعاء لهم بالهداية، وأن يجعلوا من أهل السعادة، ونصيحتهم في جميع أمورهم في دينهم، ودنياهم، وحفظ غيبتهم إذا تعرض أحد لأذيتهم، وصون أموالهم، وعيالهم وأعراضهم، وجميع حقوقهم، ومصالحهم، وأن يعانوا على دفع الظلم عنهم، وإيصالهم لجميع حقوقهم، وكل خير يحسن من الأعلى مع الأسفل أن يفعله، ومن العدو أن يفعله مع عدوه؛ فإن ذلك من مكارم الأخلاق؛ فجميع ما نفعله معهم من ذلك ينبغي أن يكون من هذا القبيل، لا على وجه العزة والجلالة منا، ولا على وجه التعظيم لهم، وتحقير أنفسنا بذلك الصنيع لهم، وينبغي لنا أن نستحضر في قلوبنا ما جبلوا عليه من بغضنا وتكذيب نبينا ﷺ، وأنهم لو قدروا علينا؛ لاستأصلوا شأفتنا، واستولوا على دمائنا، وأموالنا، وأنهم من أشد العصاة لربنا، ومالكنا عز وجل، ثم نعاملهم بعد ذلك بما تقدم ذكره امتثالا لأمر ربنا عز وجل، وأمر نبينا ﷺ، لا محبة فيهم، ولا تعظيما لهم، ولا نظهر آثار تلك الأمور التي نستحضرها في قلوبنا من صفاتهم الذميمة؛ لأن عقد العهد يمنعنا من ذلك؛ فنستحضرها حتى يمنعنا من الودِّ الباطن لهم، والمحرم علينا خاصة، ... وبالجملة فبرهم والإحسان إليهم مأمور به، وودهم وتوليهم منهي عنه؛ فهما قاعدتان إحداهما محرمة والأخرى مأمور بها، وقد أوضحت لك الفرق بينهما بالبيان والمثل؛ فتأمل ذلك[1]

أقول: بهذا التقرير المفصل والواضح يتضح الفرق بين البر والموالاة، في كون البر هو فعل الخير للغير دون النظر إلى دينه، ويكون مع المسلم وغير المسلم، والبر يتعلق أكثر ما يتعلق بالأفعال الظاهرة، كزيارة وإهداء وإقراض؛ أما المودة -وكذلك الموالاة- فهي أمر قلبي محض يقتضي المحبة والنصرة والرضا والإقرار بما يأتي به الآخر،

تختلف عن أحكام الهزيمة.

الأمر الرابع، هذه الأحكام فيما لو كان هناك عقد يعرف بعقد أهل الذمة الذي يتم بموجبه اثبات حقوق وواجبات بين المتعاقدين، بين الدولة المسلمة ورعاياها من أهل الكتاب؛ فإذا لم يتحقق ذلك العقد، ولم تتحقق صورته الشرعية، فللدولة ورعاياها أن يحتكموا لما يرونه صالحا في تحقيق الاجتماع الانساني والأمن المجتمعي.

الأمر الخامس، إن هذه الصور ونحوها من ثمرات الاسترقاق كان أمرا طبيعيا بين الأمم المتحاربة آنذاك، وجزء مما هو متعارف عليه، وكانت هذه الأحكام عند المسلمين من باب المقابلة لما كان يقع على المسلمين في حوزة المشركين من صور الاذلال والاسترقاق، وعلى هذا فليس يعقل أن تتم اهانة المسلمين واسترقاقهم واذلالهم ومن ثم السكوت على ذلك، مما يسهم في زيادة العدوان عليهم، والجراءة على دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

(١) الفروق المسمى: أنوار البروق في أنواء الفروق: للقرافي، ١٤/٣.

قال ابن عاشور: (المودة من أحوال القلب فلا تتصور معها التقية[١].

فالقلب عليه أن يكره الشرك والكفر والمعاصي ولا يحب المتلبس بها ولا يصادقه أو يواده، بل عليه أن يحقق مقامات القلب كلها من المودة والحبِّ والبغض لله تعالى لكل فعل وتصرف مخالف لدين الله تعالى، يقول تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ ﴾[٢] ويقول ﴿ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢ ﴾[٣]

وننبه هنا أنه لا يحسن أن يكتفي المسلم في التعامل مع اخوته المسلمين بمقام العقل وفاعلية التعقل واغفال مقام القلب وصوره المتكثرة من الحب والبغض والموادة، بل المقامان مطلوبان في حقه، وعليه تحقيقهما معا، قال تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣ ﴾[٤]؛ فحثت الآية على عدم التفرق، وهو مقام التعقل ووظيفته على الجوارح والأبدان، ثم قال وألف بين قلوبكم؛ ليحقق مقامات القلب من التأليف والموادة، ويلحظ هنا أنه لم يقل «وعقولكم»، للدلالة على أن مقام التعقل مفروغ منه في ضرورة احترام الآخر، وعدم ظلمه، أو الاعتداء عليه في أي شكل من أشكال العدوان وصوره، وهذه كلها جمعت في قوله: «ولا تفرقوا».

يبقى أن نشير هنا إلى أنَّه لمَّا كانت مقامات القلب غير ظاهرة للاستيثاق منها؛ فقد لفت الباري نظرنا إلى أهميتها؛ فقال تعالى: فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ، حتى لا نقع في محاذير التعارض والتصادم في قراءة النصوص والحوادث والصور التي تأتي متضمنة لمعاني عدم الإيمان، كما في قول الرسول ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[٥]، وهذا ما أرشدت إليه السيرة وشواهد التاريخ التي سنأتي على ذكرها بعد قليل إن شاء الله.

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور، ٥٨/٢٨. بترقيم الشاملة.
(٢) سورة المائدة ٥١.
(٣) سورة المجادلة، الآية : ٢٢ .
(٤) سورة آل عمران، الآية : ١٠٣ .
(٥) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ١/ ١٤، رقم: (١٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير ١/ ٦٧، رقم:٤٥.

المبحث الثاني

منطق التعقل القرآني.. شواهد تاريخية مشرفة في تأسيس الإجتماع الإنساني

• **المطلب الأول/ منطق التعقل القرآني منهج حياة**

يقرر منطق التعقل القرآني ثوابت الدّين الإسلامي المبدئية؛ إذ أرسى دعائم السلام في الأرض من خلال دعوة أتباعه إلى تثبيت الاتصال فيما بينهم وتقوية الصلات الرابطة مع غيرهم على وفق قواعد دينية راسخة، منها عقيدة الإيمان بالله تعالى وضرورة لزومها، وعقيدة لا إكراه في الدين وضرورة تطبيقها، وقد أشار الإسلام إلى قاعدة جليلة في التعامُل مع المخالف، قوامها معاملته بالحسنى والبرّ، وأساس هذه العلاقة وضابطها هو قوله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾[1] فهذا نص قانوني رباني صريح في التسامح والإخاء والاجتماع الإنساني، في حالات السلم والحرب، وقد وضع الإسلام أسس تلك العلاقة الرابطة والضوابط التي من شأنها حماية الآخر غير المسلم، وُحرمة الاعتداء عليه، أو على ماله، أو بيته، أو وطنه، وربطها بغايات نبيلة، منها الدفاع عن عقيدة الأمة، وأمن المجتمع، وردّ عدوان المعتدين، يقول تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾[2]، وإذا قلبنا صفحات التاريخ سنجد خير دعاة الأرض قد واجهوا من أقوامهم شتى أنواع العذاب، فهذا نوح (عليه السلام) يقول لقومه بكل ودٍّ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا نَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾[3] فما كان من قومه إلّا أن قالوا: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ۖ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾[4]، ومع تكذيبهم له لم يترك جانب الرفق واللين بل كان حريصاً كل الحرص على هدايتهم وإنقاذهم من النار باستخدام ألفاظ التحبب والتودد لهم لعلهم يرشدون.

وهذا يوسف عليه السلام كان شفيقاً بإخوته، سمحاً معهم، مع ما ناله منهم من اضطهاد واقصاء وصنوف الأذى؛ إذ قال لهم بعد أن اعترفوا بذنبهم: ﴿ قَالَ

(١) سورة الممتحنة، الآية ٨، ٩.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٩٠.

(٣) سورة هود، الآية ٢٥-٢٦.

(٤) سورة هود، الآية ٢٧.

لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾[1]، وإذا جئنا لخير الخلق على الاطلاق نبينا المصطفى ﷺ؛ فسنجد أنَّه عانى الأمرين من قومه تكذيبا وطردا واعتداء؛ فنجده دامي القدمين، كسير الفؤاد، تطارده شرذمة من السفهاء والعبيد، يرجمونه بالحجارة، حتى ألجأوه إلى حائط، يناجي ربه؛ فإذا بربه تبارك وتعالى من فوق سبع سماوات يرسل له أمين وحيه، وخير ملائكته، جبريل(عليه السلام)، ومعه مَلَكُ الجبال يسألانه أن يطبق عليهم الأخشبين؛ فيجيب ﷺ)): «بل أرجو أن يخرج الله عزَّ وجلَّ من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»[2](٢).

وسنحاول التعرض لبعض الصور التطبيقية عن منطقة العقل ومنطقه في السيرة والتاريخ الاسلامي حتى يعرف القارئ أننا بإزاء منهج قرآني علمي رصين وواضح في التعامل مع الآخر وبشكل يفوق ما موجود اليوم في أدبيات حقوق الإنسان والنظم الغربية التي تتشدق بالحضارة والمدنية.

- **المطلب الثاني/ صور تطبيقية من السيرة والتأريخ الاسلامي**

سنحاول هنا أن نذكر نماذج من شواهد تأريخية عن تغلغل المنطق القرآني في عقول وقلوب المسلمين؛ وجهود المعلم الأول نبي الله تعالى سيدنا محمد ﷺ في التأسيس للاجتماع الانساني والتعايش المجتمعي والتسامح الفكري من خلال الصور الاتية :

- **الصورة الاولى/ تعاطس اليهود**

من الصور الخالدة التي حفظها لنا التأريخ صورة اليهود حين كانوا يتعاطسون عند النبي ﷺ رجاء أنْ يقول لهم: يرحمكم الله، فلم يحرمهم من الدعوة لهم بالهداية والصلاح؛ فكان يقول: ((يهديكم الله ويصلح بالكم))[3]، ويتضح لنا من هذا الحديث: أنَّ النبي ﷺ كان يجالس الناس جميعا على اختلاف أديانهم ومعتقداتهم، ولا يضيق ذرعا بمخالفتهم له في العقيدة، حتى أنّه يدعو لهم تأليفاً لهم وترغيباً، وكان شعاره ﷺ: ((إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً))[4] حين يطلب منه الدعاء على غير المسلمين .

وينظر هنا أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام مايز بين مقامي القلب والعقل؛ فهو في مقام القلب لم يدعُ لهم بالرحمة التي هي تعبير آخر عن المودّة والحبّ اللتين هما اختصاص القلب الذي يجب أن يكون

---

(١) سورة يوسف، الآية ٩٢.

(٢)[2] أخرجه مسلم في صحيحه، ٣ /١٤٢٠. **رقم الحديث (١٧٩٥)** .

(٣) الحديث أخرجه الترمذي في سننه، ابواب الأدب، بَابُ مَا جَاءَ كَيْفَ يُشَمَّتُ الْعَاطِسُ:(٤ /٣٩٧، ٢٧٣٩) ، وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٤) الحديث رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب باب النهي عن لعن الدواب وغيرها: ٢٠٠٦/٤، رقم ٢٥٩٩ .

واقفاً عند حدود الشارع ومحدِّداته، وأمَّا مجالسته للنّاس على اختلاف أديانهم والاستماع لهم والدعوة لهم بالصلاح والهداية تأليفا وترغيبا؛ فهذا كله من اختصاصات مقام العقل.

- **الصورة الثانية/ الاستيصاء بغير المسلمين خيرا**

ثبت عن نبي الله ﷺ في مواطن كثيرة تأكيده على حرمة الدم، ولو كان كافرا اذا لم يكن محاربا للدعوة والدعاة المسلمين؛ فعَنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِذَا افْتَتَحْتُمْ مِصْرَ فَاسْتَوْصُوا بِالْقِبْطِ خَيْرًا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا» قَالَ الزُّهْرِيُّ: فَالرَّحِمُ أَنَّ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ مِنْهُمْ)) [(١)]. وهذا حديث صريح في أنَّ الاستيصاء بالآخر ولو كان على غير ملة الاسلام أمر مطلوب ومرغب فيه شرعا، والحديث يشير إلى التذكير بكل من له ذمة ورحم بالاحسان والاستيصاء به؛ بل ثبت أنَّ النبي ﷺ أمر بقتل رجل من المسلمين؛ لكونه قتل رجلاً من غير المسلمين، كما يروى الإمام الشافعي بسنده عن عبد الرحمن البيلماني أنَّ رَجُلاً مِنَ المسْلِمين قَتَل رَجُلاً مِنْ أهْلِ الذِّمة؛ فَرُفِعَ ذلكَ إلى رسولَ اللَّه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ فقَال: ((أنا أحَقُّ مَن أوفىَ بِذِمَّتِه، ثُمَّ أمَرَ به فَقُتِلَ)) [(٢)].

وهذه صورتان من صور التفريق بين مقامي العقل والقلب، وبين منطقة العقل ومنطقه؛ فالرسول عليه الصلاة والسلام أقام الحدَّ على المسلم لقتله غير مسلم، وما ذلك الا اقامة لمقام العقل ومنطقه في حرمة الدماء المعصومة بالإسلام أو بالذمة.

- **الصورة الثالثة / تعزيز قيم الرفق واللين مع أهل الديانات الأخرى**

من الصور المشرفة في السيرة النبوية التي تؤكد منطق العقل في تعامله مع غير المسلم هو تلك المعاملة الحسنة التي جسدها رسول الله ﷺ مع مخالفيه وخصوم الدين بالرفق واللين، وتجاوزه عنهم ومقابلة إساءتهم بالإحسان إليهم والبر بهم؛ فعن السيدةَ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ اليَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَفَهِمْتُهَا فَقُلْتُ: وَعَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَهْلا يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّه))؛ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه، أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ)) [(٣)].

وما عمله النبي ﷺ مع أهل مكة عند فتحها دليل واضح وبرهان ساطع على منطق العقلانية ومقام العقل في التعامل مع الخصوم والمخالفين؛ فمع

(١) الحديث أخرجه الحاكم في مستدركه، باب ذكر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام: ٦٠٣/٢، ح- ٤٠٣٢، وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه الإمام الشافعي في مسنده، كتاب الديات والقصاص: ٣٤٣/١، ح-٣٥٠.

(٣) صحيح البخاري: ٨ /١٢، ح-٦٠٢٤.

أنه عليه الصلاة والسلام حورب بدون وجه حق واضطهد، وطرد هو وأتباعه، وأوذي في النفس والمال وفقد الأحباب والزوجة والعم والنصير؛ إلا أنه حين تمكن من اعدائه وخصومه ومضطهديه، ممن يقول منطق القلب فيهم أنهم كفار ومشركون ولا يصح موالاتهم، ولا مودتهم فإنه حقق مقام العقل في التعامل معهم؛ فلم تمتد يده إليهم بسوء ولم تأخذ منهم بثأر، إنها العقلانية التي كانت صبغة الاسلام في تأريخه الوضاء وروحه الخالدة التي لا تنتصر للنفس والذات بقدر ما تحقق مقام القلب ومنطق العقل، مقامان لم يفقه فلسفتهما مشركو الجاهلية وكثير من مسلمي اليوم، لقد اجتمعت قريش حين فتح مكة حول رسول الله ﷺ في ذهول واستسلام، وفي داخل كل نفس صراع من الخوف والرجاء حتى هتف فيهم النبي ﷺ: ما تظنون أني فاعلٌ بكم؟ قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم؛ فقال لهم رسول الله ﷺ: اذهبوا فأنتم الطلقاء[1].

بهذا المنطق العقلاني وبتلك الروح الخالدة التي سرت في جسد الاسلام، استطاع المسلمون أن يحكموا امبراطورية عظيمة من حدود الصين شرقا وحتى حدود فرنسا وأوربا غربا، حضارة نشأ في رحمها مختلف الأثنيات والاعراق والاديان والمذاهب، عاشوا جميعا في سماحة هذا الدين العظيم وتعاليمه ونظمه الخالدة، ولم تسجل في حقب تأريخه كافة إلا النزر اليسير من الممارسات السلبية التي لا تؤثر على الصورة العامة المرسومة عن ذلك التاريخ الوضيء.

- **الصورة الرابعة/ تبادل الهدايا وتعامله بالبيع والشراء**

تعايشه ﷺ مع غير المسلمين بتبادل الهدايا معهم، وتعامله معهم في البيع والشراء، والأخذ والعطاء، والاقتراض منهم، وجميع المعاملات التي يحققها الإجتماع الإنساني دليل مضاف إلى ما تقدم ويعزز ويؤكد ما أسلفنا الحديث عنه من ضرورة التماهي مع مقام العقل ووظيفة التعقل مع الآخر غير المسلم وبما يحقق التعايش المجتمعي، إذ تنقل لنا السيدة عائشة رضي الله عنها، ((أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اشْتَرَى مِنْ يَهُودِيٍّ طَعَامًا إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ، وَارْتَهَنَ مِنْهُ دِرْعًا مِنْ حَدِيدٍ))[2]. وهنا نكتة ربما قد تخفى نود الإشارة لها وهي أنَّ النبي ﷺ كان باستطاعته أنْ يقترض من أصحابه ثمن الطعام، وكلهم يتلهف أنْ يقرض رسول الله ﷺ، لكن فعله هذا كان تعليماً للأمة وتثبيتاً عملياً لما يدعو إليه من سلام ووئام، وتدليلاً على أنَّ الإسلام لا يقطع علاقات المسلمين مع مواطنيهم من غير دينهم[3].

وأما تبادله ﷺ الهدايا مع غير المسلمين؛ فنجده يقبل هدية زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلام

(١) القصة ذكرها البيهقي في السنن الكبرى، باب فتح مكة حرسها الله تعالى: ٩ /١٩٩، ح-١٨٢٧٥.

(٢) صحيح البخاري: ٣ /٨٦، ح-٢٢٥٢ .

(٣) ينظر: معاملة غير المسلمين في المجتمع المسلم، للقرضاوي: ص٣١.

بن مشكم بعد فتح خيبر؛ إذ أهدت له شاة مسمومة؛ فقبلها[١] ويروي أبو عبيد بسنده عن عكرمة أنَّ النبي ﷺ: ((أهدى إلى أبي سفيان تمر عجوة وهو بمكة مع عمرو بن أمية، وكتب إليه يستهديه أدماً، فأهداها إليه أبو سفيان))[٢]، وكذلك قبوله هدية المقوقس صاحب الإسكندرية، وكان عظيم القبط[٣]. وبناء على قبول هدية المقوقس قرر الفقهاء قبول الهدايا من جميع أصناف الكفار حتى أهل الحرب منهم، كما نص على ذلك ابن قدامة في المغني وغيره[٤].

- **الصورة الخامسة مخالطته عليه الصلاة والسلام لغير المسلمين**

ومخالطته ﷺ لغير المسلمين وإجابته دعوتهم، وأكل طعامهم، واستقبال وفودهم، وقيامه إلى جنائزهم، واتخاذه خادماً يخدمه من غير المسلمين كلها وسائل تثبت أنَّ التعايش معهم ممكن ولا يمنع منه الإسلام.

يروي البخاري عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ غُلاَمٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمْ» ، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا القَاسِمِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقُولُ: ((الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ))[٥] .

فاتخاذه ﷺ هذا الخادم من غير المسلمين بحد ذاته يعد إقراراً عملياً على التعايش معهم، فالخادم عادة يطلع على الأمور الخاصة للمخدوم، فيلزم الشخص أنْ يختار الخادم الثقة الأمين الذي يحفظ له أسراره، فما السر في اختيار النبي ﷺ يهوديا يخدمه، وعشرات الصحابة يتشرفون بخدمته؟ أليس هذا توجيها للأمة إلى جواز التعايش والتعامل معهم إذا ما كانت الثقة متبادلة بين الطرفين؟ .

وفي مشهد آخر تأتي جنازة يهودي فيقوم لها النبي ﷺ احتراماً لها كما يروي البخاري بسنده عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قَالَ: كَانَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ، وَقَيْسُ بْنُ سَعْدٍ قَاعِدَيْنِ بِالقَادِسِيَّةِ، فَمَرُّوا عَلَيْهِمَا بِجَنَازَةٍ، فَقَامَا، فَقِيلَ لَهُمَا: إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ أَيْ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ، فَقَالاَ: إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّتْ بِهِ جِنَازَةٌ فَقَامَ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا جِنَازَةُ يَهُودِيٍّ، فَقَالَ: ((أَلَيْسَتْ نَفْسًا؟!))[٦].

نخلص إلى أن الحديث عن صور تطبيقية لمضامين وظيفة التعقل القرآني أكثر من أن تحصر؛ لكن اكتفينا بهذه الصور الرئيسة عن النبي ﷺ، ولا بأس

(١) القصة رواها البخاري في صحيحه، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، بَابُ قَبُولِ الهَدِيَّةِ مِنَ المُشْرِكِينَ ٣ /١٦٣، ح-٢٦١٧ .

(٢) كتاب الأموال، لأبي عُبيد القاسم بن سلاّم: ١/٣٢٨، ح-٦٣٣ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) ينظر المغني، لابن قدامة: ٩ /٣٢٧ .

(٥) صحيح البخاري: ٢ /٩٤، ح- ١٣٥٦.

(٦) صحيح البخاري: (٢ /٨٥، ح- ١٣١٢).

أن نشير لتفاعل المسلمين وتوظيفم لمقام العقل ووظيفة التعقل في قبول الآخر واحترامه وعدم ازدرائه والانتقاص منه.

- **الصورة السادسة/ المسلمون وصور التطبيق العلمي للمنطق القرآني**

١- التكافل الاجتماعي

يكتب سيدنا أبو بكر لخالد بن الوليد رضي الله عنه في عقد الذمة لأهل الحيرة وكانوا نصارى: وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنيا فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله، ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام[١].

فهل يوجد تكافل أو ضمان اجتماعي أعظم من هذا؟ إنّه ضمان يُؤمن العيش الكريم لمن يخالفه في المعتقد، ولا يقبل أنْ يتصدق عليه احد حتى وانْ كانوا من أهل دينه وملته؛ لئلا يذل أحد وهو يعيش في كنف الإسلام، فالإسلام يعيله ويحميه ويكرمه هو ومن يعيلهم .

٢- عمر بن الخطاب رضي الله عنه

روى أبو يوسف بسنده عَن أبي بكرَة قَالَ: مَرَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِبَابِ قَوْمٍ وَعَلَيْهِ سَائِلٌ يَسْأَلُ: شَيْخٌ كَبِيرٌ ضَرِيرُ الْبَصَرِ، فَضَرَبَ عَضُدَهُ مِنْ خَلْفِهِ، وَقَالَ: مِنْ أَيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنْتَ؟ فَقَالَ: يَهُودِيٌّ، قَالَ: فَمَا أَلْجَأَكَ إِلَى مَا أَرَى؟ قَالَ: أَسْأَلُ الْجِزْيَةَ وَالْحَاجَةَ وَالسِّنَّ، قَالَ: فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِه، وَذَهَبَ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ فَرَضَخَ لَهُ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَنْزِلِ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى خَازِنِ بَيْتِ الْمَالِ فَقَالَ: انْظُرْ هَذَا وَضُرَبَاءَهُ فَوَاللَّهِ مَا أَنْصَفْنَاهُ أَنْ أكلنَا شبيته ثُمَّ نَخْذُلُهُ عِنْدَ الْهَرَمِ، إِنَّمَا الصَّدقَات لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، وَالْفُقَرَاءُ هُمُ الْمُسْلِمُونَ وَهَذَا مِنَ الْمَسَاكِينِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَوَضَعَ عَنْهُ الْجِزْيَةَ وَعَنْ ضُرَبَائِهِ، قَالَ: قَالَ أَبُو بكرَة: أَنَا شَهِدْتُ ذَلِكَ مِنْ عُمَرَ وَرَأَيْتُ ذَلِكَ الشَّيْخَ[٢] .

فهذه هي روح السماحة في الإسلام التي تبدو في حسن العشرة ولطف المعاملة، ورعاية الجوار، وسعة المشاعر الإنسانية من البر والرحمة والإحسان، وهي التي يحتاج إليها الناس في حياتهم اليومية، وهذه الروح لا تكاد توجد في غير مجتمعاتنا الإسلامية .

وبالعودة إلى مآثر سلفنا الصالح، فإنَّ المتتبع لها يجد أنهم يتواصون بحقوق غير المسلمين، كل يحذر أنْ تخفر ذمة الله وذمة رسوله ﷺ وهو شاهد، فنجدهم يحرصون على تفقد أحوالهم، ومعرفة أمورهم، فهذا سيدنا عمر يأتيه وفد من أهل الذمة؛ فيقول لهم: ((لعلَّ المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذى وبإمور لها ما ينتقضون بكم! فقالوا: ما نعلم إلا وفاء وحسن ملكة))[٣]، ويرسل رضي الله عنه كتاباً إلى أبي عبيدة

(١) ينظر: كتاب الخراج، لأبي يوسف: ص١٠٢.

(٢) الخراج، لأبي يوسف: ص١٣٩، وينظر الأموال لأبي عبيد: ص٥٦.

(٣) ينظر تاريخ الطبري: ٨٩/٤، تجارب الأمم وتعاقب

رضي اللـــه عنه عامله يخاطبه موصيـــاً بأهل الذمة: (وامنع المســـلمين من ظلمهم والإضرار بهم، وأكل أموالهم إلا بِحِلِّها، وأوف لهم بشرطهم الذي شرطت لهم من جميع ما أعطيتهم)[1] .

❊ ❊ ❊

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والحمد له تعالى في عليآئه أن وفقنـــا لاتمام هذا البحث بهذه الصورة التي رســـمناها له، وبقي علينا هنا أن نقف وقفة تأمل واســـتذكار لأهم ما حققـــه البحث من مقاصد وما توصل إليه من نتائج، وهذا ما أســـجله هنا في هذه النقاط اليسيرة:

١- فهم الافراد للإســـلام يجب أن يكون من منطلق التوازن ما بـــين مقامات القلب ومنطق العقل، وهو السبيل لرسم صورة الإسلام التنويرية لا كما يحاول تشويهها خصومه ومناوئوه.

٢- الاســـلام منظومـــة معرفيـــة وتطبيقيـــة متكاملة اشـــتملت على كل ما من شـــأنه تحقيق رقي الدول وبناء مؤسســـاتها ورقي مجتمعاتها وازدهار مرافقها وهذا ما أكـــده التأريخ والمنصفون على مرِّ الحقب الزمنية.

٣- العقل في القرآن الكريم له خصوصية مصطلحية تغايـــر معنـــاه في مســـاحته المفاهيمية الفلســـفية والكلاميـــة؛ إذ ورد في القـــرآن على صـــورة وظيفة فاعلية أسهمت في التعايش السلمي وأسست له.

٤- للقلـــب مـــن وجهة النظر الاســـلامية وظائف وأعـــمال، منهـــا: الحـــب والبغـــض، والتصديق والتكذيب، والايمـــان والكفر، والعلـــم والجهل، والصـــلاح والفســـاد، والرياء والحســـد، والمودة

الهمم، لابن مسكويه: ٣٧٥/١.

(١) ينظر فتوح البلدان، للبلاذري: ص١٤٤ .

وعدمها، والموالاة والمعاداة.

٥- ومن وظائف القلب الرئيسة أيضا التعقل، ويمكن القول أنَّ العقل هو رئيس وظائف القلب، ولخطورة شأنه وأهميته أصبح نظيراً للقلب.

٦- إنَّ منطقة العقل هي القلب، وإنَّ أية محاولة لفهم منطق هذا العقل يجب ألا تكون بمنأى عن فهم طبيعة القلب ووظائفه المتكثرة!.

٧- القرآن أرشد القلب والعقل إلى وظيفة كلٍّ منهما، وحذر من اعتداء أحدهما على مساحة الآخر؛ فالقلب مركز الفهم، والفقه، وهو وسيلة التعقّل والإدراك، .

٨- ارتبط التعقل بمفهوم العالمية لهذا الدين، ومن هنا كان تحقيق التعايش أمراً ميسوراً.

٩- لا يهتم منطق العقل لقضايا التأليف والمحبة والمودة؛ فهذه من اهتمامات القلب وخصائصه القائمة على التعظيم، ما يهم العقل هو ترسيخ الاحترام والبر والعدل والانصاف لهم، وعدم تحريك الجوارح بالضدِّ من الآخر، تحت مبدأ وقاعدة لكم دينكم ولي دين.

١٠-يهدف العقل في الإسلام إلى نشر الاحترام حتى لو كانت القلوب متنافرة، ويدعو إلى عدم الظلم حتى لو كانت القلوب متباعدة،، كما يدعو إلى عدم إثارة البغضاء والتطرف حتى لو كانت القلوب غير متآلفة.

١١-العقل والتعقل يؤمنان بالتعايش مع وجود الاختلاف الذي لن يرتفع ما دامت الأرض والسماوات.

١٢-القلب له أن يكره الشرك والكفر والمعاصي ولا يحب المتلبس بها ولا يواده، بل عليه أن يحقق مقامات القلب كلها من المودة والحبِّ والبغض لله تعالى لكل فعل وتصرف مخالف لدين الله تعالى

١٣-لا يحسن أن يكتفي المسلم في التعامل مع اخوته المسلمين بمقام العقل وفاعلية التعقل واغفال مقام القلب وصوره المتكثرة من الحب والبغض والموادة، بل المقامان مطلوبان في حقه، وعليه تحقيقهما معا.

١٤-يقرر منطق التعقل القرآني ثوابت الدّين الإسلامي المبدئية؛ إذ أرسى دعائم السلام في الأرض من خلال دعوة أتباعه إلى تثبيت الاتصال فيما بينهم وتقوية الصلات الرابطة مع غيرهم على وفق قواعد دينية راسخة، منها عقيدة الإيمان بالله تعالى وضرورة لزومها، وعقيدة لا إكراه في الدين وضرورة تطبيقها.

٥١- الالفاظ الشرعية يجب التعامل معها وفق الشرع، وذلك عن طريق جمع النصوص في اللفظ الواحد واستخلاص الفهم العام له، ومحاولة ربطه بقاعدة كلية اغلبية ثم توجيه الألفاظ الخارجة عن ذلك المعنى العام مع تلك القاعدة الاغلبية بحيث لا تتصادم النصوص ولا تتعارض.

❊ ❊ ❊

المصادر

– القرآن الكريم.

١.احياء علوم الدين : أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، دار المعرفة – بيروت .

٢.أدب الدنيا والدين، الماوردي، شرح وتعليق محمد كريم راجح, دار إقرأ, بيروت, ط٤, ١٤٠٥ه/١٩٨٥م.

٣.الأموال ابو عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله الهروي البغدادي، تحقيق سيد بن رجب ابو انس.

٤.تاريخ الطبري، لابي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

٥.تجارب الأمم وتعاقب الهمم،أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه (المتوفى: ٤٢١ه) المحقق: أبو القاسم إمامي: سروش، طهران،ط٢ ٢٠٠٠ م .

٦.التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت : ١٣٩٣ه) : الدار التونسية للنشر – تونس سنة النشر: ١٩٨٤ ه.

٧.تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي (ت: ١٤١٨ه): مطابع أخبار اليوم .

٨.الخراج، لأبي يوسف، دار المعرفة، بيروت- لبنان.

٩.شرح المقاصد في علم الكلام, سعد الدين التفتازاني، دار المعارف النعمانية , باكستان, ١٤٠١ه / ١٩٨١م.

١٠.شرح المواقف للجرجاني: تحقيق: عبد الرحمن عميرة, دار الجيل, بيروت, ط١, ١٤١٧ه/ ١٩٩٧م.

١١.صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر،الناشر: دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢ه.

١٢.صحيح مسلم أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري : دار الجيل بيروت + دار الأفاق الجديدة بيروت.

١٣.العدة في أصول الفقه, القاضي أبي يعلى البغدادي، تحقيق أحمد بن علي سير المباركي، الرياض, ط٢ ,١٤١٠ه/ ١٩٩٠م.

١٤.فتوح البلدان، للبلاذري، وضع حواشيه الامام احمد بن يحي بن جابر البلاذي المتوفى ٢٧٩ه، دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

١٥.الفروق المسمى: أنوار البروق في أنواء الفروق: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي (ت: ٦٨٤ه)، دار احياء الكتب العربية بمصر، ١٤٣١ه ٢٠١٠م.

١٦.القاموس المحيط, الفيروز آبادي مصر, نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة للمطبعة الأميرية ١٣٠٢ه.

١٧.كتاب الأموال، لأبي عُبيد القاسم بن سلاّم،

حققه وعلق عليه ابو انس سيد بن رجب دار الهدى النبوي مصر.
١٨.كتاب الخراج، لأبي يوسف.
١٩.مباحث في العقل، د. محمد نعيم ياسين، دار النفائس، عمّان، ط١ ، ١٤٣٢ه/٢٠١١م.
٢٠.مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد, بالمملكة العربية السعودية.
٢١.المستصفى، أبو حامد الغزالي, تحقيق محمد عبد السلام عبد الشافي, دار الكتب العلمية, بيروت, ط١, ١٤١٣ه/ ١٩٩٣م.
٢٢.معاملة غير المسلمين في المجتمع المسلم، للقرضاوي.
٢٣.المغني، أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد ، الشهير بابن قدامة المقدسي (ت: ٦٢٠ه)تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، والدكتور عبد الفتاح محمد الحلوط: عالم الكتب، ط، ٣.
٢٤.المفردات في غريب القرآن,للراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني, دار المعرفة, بيروت, بدون معلومات الطبع.
٢٥.مقال العقل، تعريفه، منزلته، مجالاته، ومداركه د. عبد القادر بن محمد بن عطا صوفي، مجلة البحوث الإسلامية, عدد ٧٩ /٣٥٠ .